الفصل الرابع

امتياز مفهوم الأخلاق في الإسلام

- ☐ **فقدان الأساطير**
- ☐ **تغليب العقل**
- ☐ **خلق العالم**
- ☐ **المحسوسات**
- ☐ **التوازن**
- ☐ **الفكر التجريدي**
- ☐ **الإنسان خليفة اللّه**

لقد أنتجت الخصائص الإسلامية للعطاء الفكري نتائج حضارية امتاز بها الفكر الإسلامي على غيره، جعلته فريداً بين ضروب الفكر التي عُرفت على سطح الأرض، ونوجز هذه النتائج بما يلي:

1. فقدان الأساطير:

لقد وقف (توحيد اللّه) وتنزيهه كالطود في وجه الخرافة والحديث عن الشياطين والجان والآلهة المزعومة، والكائنات الخرافية، فلم يسمح للأسطورة أن تنمو في ظله ما دام الإنسان يحيا في صحوه ووعيه، وحين ترجم العرب كتب اليونان والسريان والفرس، نقلوا موضوعات كثيرة (أسندوها إلى أصحابها) في العلوم المختلفة، والفنون والطب والفلسفة، ولكنهم لم يترجموا شيئاً عن الأساطير ولا استساغوا أدب الإغريق أو قصص الفرس أو خيالات الهنود. كانوا يتخيرون فيما يترجمون وكانت معقولاتهم مكينة قوية لم تسمح بتسرب اللامعقول إليهم كما يفعل بعضنا اليوم حين يترجم أو يعرّب بلا تمييز.

2. تغليب الجانب العقلي:

وظهر هذا في الفلسفة والعلوم المختلفة حتى التي كانت مليئة بالخرافات فإنهم أخذوا يصححونها ويطبعونها بطابع موضوعي عقلاني. لننظر مثلاً إلى علم الفلك، فقد كان إلى عهد قريب (حتى أيام فولتير) في الغرب تختلط أبحاثه بعلم التنجيم، وما احتشدت فيه الأساطير. لقد حوَّله الإسلاميون إلى علم الفلك الرصين الدقيق الذي ترجمه العلماء إلى اللاتينية. أما ابن خلدون فقد أشار منذ سبعة قرون (في القرن 13م) إلى أن «علم الفلك صناعة حسابية تقوم على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب عن طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعةٍ وبطءٍ واستقامة ورجوع»[1].

وقد ارتقى العقل في الإسلام إلى درجة تحسدها الأديان وتحرص عليها الحضارات. وها نحن نورد فيما يأتي بنصٍ أثر عن الإمام الغزالي (بين العقل والشرع في الإسلام).

إنَّ العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين ولا يبين إلا بالعقل، فالعقل كالأسّ والشرع كالبناء، ولن يغني أسٌّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس، وأيضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر، ولهذا قال تعالى: {**قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ**} [المائدة: 15-16]. وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده، فإن لم يكن زيت لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت، قال الله تعالى: {**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ**} [النور: 35] والله هو الهادي. وأيضاً فالشرع عقل من خارج العقل، والعقل شرع من داخل الشرع وهما متعاضدان بل متحدان، ولكون الشرع عقلاً من خارج سلب الله

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص585، طبعة المعارف.

تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله: {**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**} [البقرة: 171] «ذلك الدين القيم» فسمى العقل ديناً ولكونهما متحدين قال: نور على نور. أي نور الشرع ونور العقل. ثم قال «يهدي الله لنوره من يشاء»[1] فجعلهما نوراً واحداً، فالشرع إذا فقد العقل، عجز عن أكثر الأمور، عجز العين عند فقد الشعاع.

3. خلق العالم:

سلَّم المسلمون بأن العالم مخلوق، أما كيف تم خلقه، وكيف كان قبل أن يوجد فإنهم اتخذوا من هذه الأسئلة موقفاً سوف يقترب منه الموقف الوضعي الإيجابي (الذي سيتبناه «أوغست كونت» فيما بعد)، (والذي يعتبر البحث في هذه الأسئلة خارجاً عن نطاق الإدراك الإنساني). مع الإيمان بأن العالم القائم منظم وخاضع لسببية دقيقة والفرق بين الموقفين: الإسلامي والوضعي: أن هذا الأخير يُنكر ما لا يراه أو ما لا يطلع عليه (شأن الأطفال الصغار الذين إذا غاب عنهم شيء ظنوا أنه انعدم)!..

(1) لقد توسعنا في شرح هذا النص وصدرناه بكتاب سميناه «العقل والشرع» وأشرفت على طباعته دار البشائر عام 1424هـ الموافق 2004.

4. الاهتمام بالمحسوسات في سبيل المعقولات:

كان المسلمون يتلون في كتاب الله: {**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً**} [الإسراء: 36] فاكتسبوا تفكيراً حسياً تجريبياً في وقت مبكر كان من نتائجه تفكير عصر النهضة، لقد صنع الفكر اليوناني الأسطورة وصنع الفلسفة ولكنه لم يصنع العلم التجريبي، فهذا العلم يقتضي البدء بالمحسوسات والانتهاء بالمعقولات.

يقول غارودي الفيلسوف المعاصر[1]: إن عظمة الفكر الإسلامي تقوم على تحويل العقل من دورانه حول نفسه إلى دورانه حول العالم.

5. التوازن والانسجام بين الإنسان أو (العالم الأصغر) وبين العالم الخارجي أو (العالم الأكبر):

المسلمون لم يعرفوا الانطواء المفرط على النفس، ولا التأمل المفرط في المثالية إلا بعد أن ترجمت الكتب الصوفية الهندية وحقاً فالفلسفة المثالية المطلقة لم تعرف عندهم، ونحن لا نعثر على مفكر إسلامي واحد ينكر جدياً وجود العالم الخارجي على طريقة (باركلي) مثلاً.

وفي مقابل ذلك: لم يكن المسلمون أبداً من اتباع المادية المفرطة التي تنكر وجود الروح مثل مادية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومادية الماديين الأغارقة.

6. التفكير التجريدي:

(1) راجع مقال الإسلام وأزمة الغرب. الندوة الدبلوماسية الحادية عشرة، ص65، بإشراف
د. علي حميدان. (الإمارات العربية المتحدة).

إن إيمان المسلمين بالله (الذي لا يقبل المشاركة أو المشاكلة) اكسبهم تفكيراً تجريدياً ناصعاً لمع في الرياضيات وفن الرسم الزخرفي بوجه خاص.

إن ابتكار الصفر، واستعمال الرموز المجردة وإبداع الجبر (وهو تجريد التجريد) يعد من الأمور الفذة التي قدمها العرب للإنسانية[1].

ومن المفيد أن نعلم أن أوربا ظلت تعتمد في دراستها الهندسة اليونانية على الكتب العربية وما ترجم عنها في القرن التاسع عشر، إلى أن اكتُشف الأصل اليوناني من كتاب اقليدس عام 1853.

أما فن الرسم الزخرفي فقد تأثر بالفكر التجريدي عند المسلمين. إن قلة اهتمام المسلمين بالصور البشرية لا ترجع فقط إلى نفورهم من الوثنية والأسطورية بل ترجع أيضاً إلى أن الجمال عند العرب المسلمين أقرب إلى أن يكون معنى تتأمله النفس منه إلى أن يكون جسداً تتلذذ به وحساً ومادة. وقد شاهد أحد فلاسفة الفن الزخارف العربية في الأندلس فخرج مشدوهاً وهو يقول: هذه ليست خطوطاً وألواناً، أنها موسيقى لونية تمددت خطوطها وسطوحها إنها اللانهاية تلونت وتشخصت فأسبغها المسلمون على الأواني والجدران وأغلفة الكتب والسيوف والثياب. وفي وسط هذه اللانهاية يبرز الإنسان.

7. الإنسان خليفة اللّه على الأرض:

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30].

---

(1) وقد احتفل أخوتنا المسلمون في الآستانة من أعوام بعرض مخطوط رياضي يرجع إلى ما يزيد على ثمانية قرون كانت فيه بعض الأبحاث التي ما عرفها الأوروبيون قبل ديكارت فيلسوف الرياضيات الأفرنسي، ومن جملتها ابتكار طريقة لحل المعادلات من الدرجة السادسة (س6)!.

يخبر المولى تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهيه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل ايجادهم بقوله «**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ**» أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة وأقصص على قومك ذلك «**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**» أي قوماً يخلفونني بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهم بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، لكن لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: {**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**} وهذا سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك؟.. فإن كانت الحكمة في عبادة الله، فـ{**نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**} أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتم ولا تعلمونها، فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل، ويكون منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعُباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقرّبون والعلماء والعاملون والخاشعون لله والعارفون والمحبون، تمييزاً لهم عما عداهم.

% % %